قراءة متأنية في كتاب السنة (٢ من ٢)

في السلطة

في الحلقة الاولى تناول الكاتب جانبا من كتاب «الاسد» لـ باتريك سيل . وهو يتابع اليوم محللا الفكار الرئيسية التي اوردها الكتاب لشرح التفكير السياسي للرئيس السوري ومفهومه لعلاقات سورية مع العرب و العالم

الحياة - ٨٩/٩/١٠

غسان سلامة *

■ في ٨ اذار ١٩٦٣ وصل البعث الى السلطة في دمشق من خلال انقلاب عسكري ودخل حافظ الاسد معه اروقة الحكم ليتدرج فيه قائداً للواء السبعين فوزيراً للدفاع فرئيساً للجمهورية. ولكن اليوم الاول للسلطة حمل معه سمتها الاساسية. فالقيادة الجديدة، كما يقول سيل، كانت «فرعاً من اقلية ومجموعة عسكرية منشقة تنتمي الى حزب تفككت اوصاله» (ص ٨٥). وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الانغلاق الضيق ان الحكم الناشىء سيمارس السلطة بالقوة لا بالتراضي.

واذا كان انقلاب ١٩٦٣، في تركيبة قادته، سيحكم طبيعة السلطة فيفسر تسلطها، فان حرب عام ١٩٦٧، ستضع التركيبة هذه في مواجهة تناقضاتها جميعاً: مع عبد الناصر وضده، في صراع مع اسرائيل من دون اكتمال شروط ذاك الصراع، في مشروع سياسي طموح من دون رضى الشعب السوري العميق. وان تعلم الاسد من الخلافات الداخلية قوانين الربح باللعب على الوقت، فهو تعلم من هزيمة ١٩٦٧ ضرورة تجميع الاوراق في اليد قبل فلشها على الطاولة. فلقد بدا القادة السوريون آنذاك، كانهم يفتعلون معركة مع اسرائيل من دون اخذ الاحتياطات لها. ويميل سيل كثيرا الى القبول بنظرية توريط سورية لعبد الناصر في حرب حاول المستحيل لتجنبها. وعندما اندلعت الحرب، اصيب القادة السوريون بنوع من الهلع الجماعي.

لكن حرب ١٩٦٧ دفعت الاسد ايضا الى موقف نقدي من العمل الفلسطيني المسلح لن يتخلى عنه يوماً. الفلسطينيون، في نظره، لا بد ان يكونوا مجرد ادوات في يد الجيوش النظامية، لان الحرب الحقيقية هي حرب تقليدية. وعلى رغم ان هذا الموقف مفهوم من قبل ضابط نظامي، فان كاتب السيرة لا يحاول تفسيره بغير الحجج العسكرية وكانه ليس ايضا صورة عن رفض دمشق الضمني للصوت الفلسطيني السياسي المستقل.

وبدا في نهاية الستينات ان الاسد على قاب قوسين من السلطة بطرده رئيس الاركان السويداني ودفعه عبد الكريم الجندي للانتحار وسيطرته شبه التامة على الالة العسكرية السورية الى ان جاءت احداث ايلول الاسود في الاردن لتسرع عملية تسلمه السلطة. ويؤكد سيل هنا ان الاسد شارك في البدء في قرار التدخل السوري في الاردن، بل انه انتقل الى درعا لادارة العمليات. لكن نتاج العملية كلها كان سلبياً للغاية. «فتدخل الاسد في الازمة، يقول سيل، كان من دون تخطيط، ولا حماسة ولا نجاح» (ص ١٦٢). ويمكن القول هنا ان قراءة سيل لاحداث الاردن تضع قدراً اكبر بكثير من المسؤولية على الرئيس الاسد، مما هو متداول حتى الساعة: ان في اتخاذ قرار ارسال الدبابات الى درعا، او في ادارة العمليات او في النتيجة النهائية للتدخل السوري. وهو تدخل سمح بارساء اسس العلاقة الاستراتيجية الخاصة بين واشنطن واسرائيل. بعدها باسابيع، كان الاسد ينقلب على صلاح جديد. ولا يقول سيل في الموضوع جديدا، عندما يؤكد ان العملية ادت في الواقع الى سيطرة الجيش التامة على الحزب.

اما بالنسبة الى كيف حكمت سورية ايام الاسد، فان سيل يبدو محرجاً بعض الشيء في التفصيل. فهو يؤكد ان «طبع الاسد في الاساس تسلطي اكثر مما هو ديموقراطي». وهو يفصل كيف ان الحكم قائم على طبقتين: وجه مؤسسي لادارة الدولة والاقتصاد وقاعدة امنية متينة معظم القيمين عليها ينتمون للطائفة العلوية». ويؤكد سيل ايضاً ان تعدد المؤسسات لم يغير طبيعة السلطة «وهي شخصية. فالتحسينات التي ادخلها على الوضع السابق لا تغير شيئاً من الواقع ومفاده ان الدولة التي انشاها الاسد لم تكن نابعة من المجتمع، بل هي مفروضة عليه». (ص ١٧٨)

لكن هذا التوصيف الدقيق لطبيعة السلطة ما كان يجب ان يدفع باتريك سيل الى عرضه غير الموضوعي لاصناف المعارضة السورية. فإذا كانت السلطة كما وصفها، فالمعارضة طبيعية . وطبيعي ان تكون عنيفة في مسلكها. ولكن سيل في كتابه قاس مع اعداء الاسد ومنافسيه على السواء. مع عمران وجديد، ثم مع معاونيه داخل الحزب، خصوصا مع المعارضة الاسلامية. فالفصل المخصص لوصف المعارضة عنوانه «العدو الداخلي» وسيل لا يناقش كثيرا صاحب السيرة في ادعائه ان المعارضة الداخلية جزء من مؤامرة خارجية عليه، ليس إلا. فعندما يتحدث عن ماساة حماة، يقول سيل ان «الظروف ارغمت الاسد على التحول من رجل توافقي الى حاكم مستبد». (وهي مقولة يناقضها ما ذكرنا عن قلم سيل نفسه في الفقرة السابقة). وتذهب الحماسة بالكاتب منحى بعيداً (ص ٣٣٠) عندما يروح يفصل انتقادات المعارضة للنظام ثم لا يتوانى عن لفظ حكم ظالم عليها بقوله «ولكن تلك انتقادات كل الذين لم يفهموا حقيقة سياسات الاسد، او انهم لم يرغبوا في ان يفهموها على حقيقتها». هكذا وبشحطة قلم يؤكد سيل ان من عارض النظام كان غير متفهم له. وهو تفسير، في احسن الاحوال، بدائي.

وعندما يبدأ الصدام المسلح بين النظام والمعارضة الاسلامية، لا يخفي سيل موقعه الشخصي. فقادة العصيان، في حماه وغيرها، هم من «سذجاء» السياسة (ص ٣٣٦). وهو لا يناقش لحظة مقولة الاسد الاساسية ومفادها ان معارك حماه ضده هي جزء من «مؤامرة كمب ديفيد». بل ان سيل يبرر التضييق الاقتصادي الذي تلا الصدام العسكري، وينتهي لخلاصة ان المواجهة في حماة وغيرها من المدن السورية، ما كانت من جانب النظام الا نوعاً من «الدفاع عن النفس» ويتجاوز سيل الحدود المقبولة حينما يضع على «الاخوان المسلمين» مسؤولية نشوء نوع من «عبادة الشخصية» للرئيس الاسد في سورية. فهم الذين، بحماقتهم، دفعوا اضراره لذلك! ويعود سيل لاحقا الى هذه المقولة (ص ٣٤٤) فينتقل باصبع اتهامه من «الاخوان المسلمين» الى اسرائيل وكيسينجر فيتهمهما بانهما هما السبب الحقيقي لتحول الاسد نحو مزيد من التسلط الداخلي في الثمانينات بسبب المؤامرات التي حاكوها ضد سورية!

من الصعب اذن اتباع سيل بعيداً في تفسيره (المنزلق نحو التبرير) لمسالة الصراع الداخلي. فقراءته تبدو منحازة الى حد كبير لمصلحة النظام. ولا يقلل من هذا الانحياز الا الاشارات الواردة هنا وهناك لطبع الرئيس «المنفرد والتسلطي» او لسوء مسلك عدد من معاونيه. لكن سيل يرى في استبقاء هؤلاء نوعاً من الوفاء. ولا يرى الخلل الذي يصيب اي نظام سياسي لا تتجدد النخبة الحاكمة فيه في استمرار. وعندما تتضح الصورة التسلطية، يجنح الكاتب للبحث الدؤوب عن تفسيرات خارجية لها، متجاهلا الازمة السياسية الخانقة التي تنتجها الانظمة التسلطية على جل الرقعة العربية.

يبقى طبعا اساس السيرة كلها وهو «الصراع على الشرق الاوسط». ومرة اخرى، يتبنى الكاتب صورة صاحب السيرة بعرضه للموضوع كنوع من المنازلة الثنائية بين سورية واسرائيل، يلعب فيها كيسينجر دور الشيطان المخادع وانور السادات دور الشقيق الخائن والعرب الاخرون بمن فيهم الفلسطينيون، دور الكومبارس العاجزين. ولا ريب ان صاحب السيرة يرتاح الى عرض موقفه على هذا النحو من المواجهة الفردية، شبه الدون - كيشوتية، للعدو الاسرائيلي محاطاً بالشياطين المخادعين، بينما الاسد محاط بالزملاء الخونة او الخانعين، مما يفسر نجاح اسرائيل وفشل سورية على رغم سعيها الحثيث نحو «توازن استراتيجي» مع العدو. «فسورية واسرائيل متواجهتان ومتنافستان وتسعيان الى الموقع الاول في المشرق، وبالتالي فلا مجال إلا لعدائهما المتبادل» (ص ١٨٥).

لا ريب طبعاً ان عناصر كثيرة تؤكد ان هذه المقولة غير خاطئة تماماً. والكتاب مليء بالاشارات الى ذلك، بل ان كاتب السيرة خصص لهذه المسالة الجزء الاكبر من ابحاثه. فتفسيره لحرب ١٩٧٣ واضح في حدته «لقد كذب السادات على الاسد وخدعه عن سابق تصور وتصميم، فاقنعه بان مصر ستخوض حرباً اوسع بكثير مما كانت عملياً تريد» (ص ١٩٧) اما نتاج الحرب، فالكاتب واضح فيه ايضا (ص ٢١٥) «السادات خدع الاسد وكيسينجر خدع السادات». وبعدما كان الاسد ضحية الخدعة، اصبح بطلاً للصراع على مصر. فالكاتب يصور الاشهر التي تلت حرب ١٩٧٣ وكانها تنافس على ذهن السادات بين سورية والولايات المتحدة. وبما ان الكاتب يميل للمواجهات الشخصية الثنائية، فهو يبالغ كثيراً في توصيفه دور الاسد خلال تلك المرحلة يجعله نداً لواشنطن. وكان اللعبة التي وصفها سيل في كتابه الاول حول سورية اصبحت في السبعينات لعبة حول مصر، دمشق فيها لاعب كبير، كما واشنطن. ولا يبدو الكاتب مقنعاً في مبالغته هذه (خصوصاً الفصل ١٥ من الكتاب) التي لا تؤيدها اي مذكرات او دراسات عن المرحلة. ونقطة الضعف الاساسية في التحليل هي في قيامه على

حجة واحدة اساسية هي ذكاء كيسينجر الخارق وتبنيه الكامل للموقف الاسرائيلي. ولا شك في ان الامرين صحيحان. لكن تحرك كيسينجر ما كان ليكون مؤذياً للمصالح العربية بالقدر الذي كان عليه، لولا الاوراق الكثيرة التي كانت واشنطن جمعتها في يدها من تردد سوفياتي الى تخاذل عربي وسيطرة عسكرية اسرائيلية. لكن سيل، الماخوذ بالكتابة الصحافية، يفضل شخصنة التحليل والمبارزات شبه المسرحية على تحليل العناصر الموضوعية.

غير ان المدهش في تحليل باتريك سيل يتعلق بامر نفسي. وهو ما يبدو في الكتاب من قابلية صاحب السيرة للوقوع في فخ المخادعين. فكم من مرة نرى سيل يفسر خطا سياسياً، كبيراً كان او صغيراً بتمكن شخص ثالث من خداع الاسد. فاحداث الاردن كانت فخاً اميركياً - اسرائيلياً وقعت فيه الاطراف العربية كلها، بدءاً بسورية (ص ١٦٢). وحرب تشرين كانت خدعة ساداتية وقع فيها الاسد (ص ١٩٧). وخططه العسكرية استطاعت اسرائيل الحصول عليها بخدعة اخرى (ص ٢٠٠). ومفاوضات السادات مع الاميركيين خلال الحرب، كانت مفاجئة «للرجل البريء نسبياً» (ص ٢١٤). والاسد لم يتبادر الى ذهنه لحظة ما يبيته له المخادع اللعين كيسينجر (ص ٢٣١) فخدعه من خلال تقريظه وابداء الاعجاب بقيادته الحكيمة لسورية وجعله يقبل بوقف النار في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣. ثم خدعه مرة اخرى عند كلامه عن المؤتمر الدولي في كانون الاول (ديسمبر) (ص ٢٣٦). وخدعه بجعله يقبل بفك الاشتباك على جبهة الجولان في العام التالي من دون ان يعلمه ان الهدف الحقيقي من العملية هو التحضير لاتفاق سيناء - ٢ (ص ٢٣٩). وخدع كيسينجر الاسد بالتركيز على القرابة الاتنية بين العرب واليهود (الصفحة نفسها). ثم خدعه وجعله يقدم على تقديم لائحة الاسرى الاسرائيليين لدى سورية قبل الموعد المناسب لمصلحة سورية (ص ٢٤١). حتى جيمي كارتر، الرئيس «الادمي» استطاع خداع الاسد في لقائهما في جنيف. والسادات نفسه، استطاع ان يعود فيخدع الرئيس السوري مرة اخرى عشية ذهابه للقدس باخفاء اتصالاته السرية عنه خلال لقائهما في مطار دمشق (ص ٣٠٥).

يبقى طبعا ان سورية بلد عربي وان العرب هم في النهاية، الاكثر اهتماماً بما يحصل في سورية ولها. والقراء العرب لهذه السيرة قد تستهويهم شخصية صاحبها. والارجح انهم سيجدون فيها بعض الانحياز (الصارخ احياناً) لغير مصلحة اقطارهم.

لنبدا بمصر، وهي تخرج مثخنة بالجروح من السهام القاسية التي يطلقها باتريك سيل عليها. ونعاجل بالقول اننا نشارك صاحب السيرة وكاتبها على السواء معارضتهما العميقة لمعاهدة كمب ديفيد، هذا الاتفاق الذي عمل في الصفوف العربية تكسيراً بينما اراح اسرائيل من جبهتها الجنوبية. ونجد لمعارضتنا الف سبب وسبب، ذكرت ام لا في الكتاب. لكن الكاتب لا يبدي، في المقابل، اي تفهم للموقف المصري اطلاقاً. ولا يفسر كيف ان سياسة السادات كانت تلاقي دعماً شعبيا في مصر، نظراً الى تضحيات مصر الكبيرة والمصاعب الهائلة التي كانت تواجهها وشح الدعم العربي لها. سيل يركز فقط على دهاء السادات وكذبه والاعيبه. ولا يبحث عن اي تفسير لمواقفه بينما هو يجهد في تفسير بل تبرير مواقف منافسه السوري.

ولا تخرج قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في صورة افضل. ففي اللحظة التي يقبل فيها الكاتب بصورة الرئيس عن دوره، نراه يقبل بالتالي بنظرته الى منظمة التحرير، التي لم تلق يوماً هوى في نفسه. وينحو سيل باللائمة على المنظمة بمواجهتها الدخول السوري الى لبنان (ص ٢٨٤). وهو يميل للقول ان قيادتها لن تخرج ابدا من دوامة التردد امام قبول القرار ٢٤٢ (ولكن هذا حصل فعلا بعد اسابيع قليلة من صدور الكتاب). اما الاردن فالكاتب يصدر عليه نوعاً من الحكم الثابت، اذ يرى انه دخل فعلاً في الفلك الاميركي (وبالتالي الاسرائيلي) منذ قبوله بالحماية العسكرية خلال ايلول الاسود ١٩٧٠.

ولا يخرج العراق سليماً من هذه السيرة. فالكاتب يتهمه طبعا بدعم المعارضة داخل سورية بالمال والعتاد. ويضع سيل مسؤولية فرقة البلدين بعد لقائهما على بغداد وعلى طموحات الرئيس صدام حسين، اكثر مما يضعها على سورية. وعندما يتحدث عن حرب الخليج، في فصل عن الاسد عنوانه «حليف آية الله»، يضع التحالف السوري - الايراني في خانة البحث عن حلفاء لمواجهة اسرائيل وضرب كمب ديفيد. وهو تفسير ناقص اذا كان صحيحاً. ويتناسى الكاتب ان النظام الثوري في ايران شكل تهديداً حقيقياً على الوضع القائم في العراق. وعندما يتحدث سيل (ص ٣٤٧) عن قمة عمان المهمة عام ١٩٨٠، يرى ان سورية عارضتها لانها كانت ستؤيد النظرة الاردنية للمفاوضات مع اسرائيل، بينما نعرف جميعاً ان مؤتمر القمة في عمان تلك السنة (قاطعته سورية بعنف) كان الهدف منه اساساً طرح موضوع التنمية الاقتصادية الشاملة من خلال «عقد التنمية العربية» الذي كان فريق من الخبراء الاقتصاديين العرب المرموقين عمل على التحضير له خلال اكثر من سنتين.

اما لبنان، فيصعب لكثيرين من ابنائه ان يقبلوا من دون جدل تصوير الكاتب لحربه المدمرة. فمنذ مطلع الكتاب (ص ١٥) يتحدث سيل عن مفهوم «سورية الطبيعية» وكانه مفهوم مقبول به عملياً، وكانه ليس شعاراً سياسياً كغيره من الشعارات. ثم يخصص فصلا كاملا للحديث عن حرب لبنان تحت عنوان «الفخ اللبناني» باعتبار ان البلد الصغير المجاور كان في الاساس فخاً لجارته القوية. وهي اطروحة ينقضها سيل بنفسه حين يتحدث في مطلع الكتاب بل في السطور الاولى من الفصل المخصص للحرب اللبنانية (ص ٢٦٧) عن طموح الاسد «لتحويل سورية الى قوة اقليمية كبرى». وفي الصفحة التالية «عن حاجة سورية الماسة الى تحويل لبنان (والاردن) الى نوع من الطوق الحامي حول دمشق». ويرى سيل الحرب اساساً من خلال المواجهة السورية - الاسرائيلية. لكنه يعطي تاريخاً وتفسيراً دقيقين «لاتفاق الخطوط الحمر» بين سورية واسرائيل في لبنان. وهو من افضل ما قرانا في الموضوع وربما اكثره دقة. لكن الامانة تقضي بالاشارة الى ان سيل صور ببراعة كبيرة كيف هزم الاسد بغزو لبنان عام ١٩٨٢. واستطاع ان يغير مجرى الامور في السنة التالية لمصلحته بقضائه على اتفاق ١٧ ايار بين لبنان واسرائيل، ولو ان الكاتب يقلل هنا في راينا من اهمية العنصر السوفياتي، علما ان اندروبوف سارع انذاك لبناء جسر جوي ساعد بسرعة فائقة في تمتين الموقف العسكري السوري. وعلى رغم تحفظنا على تجاهل الكاتب لرغبة اكثرية اللبنانيين بالحفاظ على استقلالهم وعلى نظامهم السياسي الديموقراطي على علاته، فالامانة تقضي ايضا بالاشارة الى ان الكاتب انتهى بتذكرها، اذ ذكر صاحب السيرة (ص ٤١٩) بان مطامح اللبنانيين والفلسطينيين والاردنيين «بالاستقلال عن اوامر دمشق» هي، على الاقل مشروعة بقدر ما يمكن ان تكون رغبة سورية في استقطابهم مشروعة.

عندما سال الكاتب صاحب السيرة كيف يرى ان تكون خاتمتها اجابه فلتكن «النضال مستمر». لقد كان صوت سورية مسموعاً في المنطقة خلال العقدين المنصرمين. وفضل رئيسها في هذا التطور مهم بل اساسي. لقد عرفت سورية ان تتبنى منذ ١٩٧٠ شعارات وسياسات بعيدة عن التوافق العربي في شكله الحالي، لكنها عرفت ايضا ان تقاوم العزلة السياسية التي كان من الطبيعي ان تلازم تبني هذه السياسات. فما رضخت سورية لارادة الاخرين، وما انعزلت تماماً عنهم. ولقد ابدع باتريك سيل فعلا في تصوير هذه السياسة المزدوجة، بل والملتبسة في معظم الاحيان بحيث امسى الكاتب، الذي خصص له سنوات خمس من ابحاثه، مرجعاً اساسيا لتاريخ العرب المعاصر سيعود اليه جميع الباحثين، حتى الذين يختلفون مع عدد من استنتاجاته، ونحن بالطبع منهم.

لكن «النضال» الذي ذكره صاحب السيرة، لا يمكن ان يستمر بالوسائل نفسها. ويقيننا انه لن يستمر فعلا، ولن يكون مثمراً اذا لم يتطور بعمق فياخذ في الاعتبار ليس طموحات صاحب السيرة وحسب بل تطلعات ابناء شعبه لمزيد من الحرية والديموقراطية وتطلعات الشعوب العربية الصغيرة المحيطة بسورية لمزيد من الاستقلال. وعلى النضال هذا، بادىء ذي بدء، ان يبدي مقدرة حقيقية على التاقلم مع المعطيات الدراماتيكية الجديدة في المنطقة نفسها وفي العلاقات الدولية، لا سيما بين الجبارين. والقريب من الزمن سيحسم، ولا ريب، مسالة قدرة دمشق على مواجهة الطموحات المحلية الصاعدة والتطورات الدولية المتسارعة.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.